

جوانب من تاريخ المؤسسات العلمية بمدينة القاهرة في عهد المماليك
**Aspects of the history of educational institutions in Cairo
 during the Mamluk era**

د. عبد الرحمن بالأعرج¹

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية – جامعة تلمسان (الجزائر)

/ dr.bellaredj@gmail.com abderrahmane.bellaredj@univ-tlemcen.dz

تاريخ الإرسال: 2021-06-17 تاريخ القبول: 2021-12-16 تاريخ النشر: 2021-12-30

ملخص: يهدف هذا المقال إلى تسليط الضوء على عينات من مؤسسات العلم في مدينة القاهرة خلال عصر المماليك، واتباعنا فيه المنهج التاريخي القائم على جمع المادة العلمية ونقدها وتحليلها ثم إعادة تركيبها. حيث تعد أماكن التعليم سبباً أساسياً وحيوياً لتنشيط الحركة العلمية لما تضمه من مدرسين ولما يقرر فيها من دروس، وهي بالتالي تشكل النواة الأولى والبيئة الطبيعية التي ينمو فيها العلم ويزدهر. وتتمثل أماكن التعليم فيالعصر المملوكي فيما أنشئ من مدارس وجوامع وما شيد من الخوانق والأرطة والزوايا، لتدرس فيها العلوم الدينية والعلوم اللسانية والعلوم العقلية، وكان إلى جوارها مكاتب صغيرة ملحقة لتعليم الصغار مبادئ القراءة والكتابة وشيء من العلوم الأولية مع تحفيظ القرآن الكريم.

الكلمات المفتاحية: التاريخ الثقافي، المماليك، تاريخ القاهرة، المدرسة، الخوانق، البيمارستان.

Abstract :

This article aims to study some cultural institutions in the city of Cairo during the Mamluk era. In it, we followed the historical method based on collecting, criticizing, analyzing and re-combining the sources.

Places of education are considered a basic and vital reason to revitalize the scientific movement, because of the teachers they contain and the lessons decided in them, and thus they form the first nucleus and the natural environment in which science grows and flourishes. The places of education in the Mamluk era are represented in the schools, mosques and Sufi houses built, in which to study religious sciences, linguistic sciences and mental sciences, and next to them were small offices attached to teach young people the principles of reading and writing and some elementary sciences with the memorization of the Holy Quran

Keywords: Cultural history, Mamelukes, History of Cairo, Schools, Sufi House, The bimaristan.

¹ المؤلف المرسل: عبد الرحمن بالأعرج، الإيميل: abderrahmane.bellaredj@mail.univ-tlemcen.dz

شهد عصر المماليك نهضة شملت كل ميادين الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والعمرائية، حيث تمكن هذا العنصر الطارئ على الحكم في القاهرة من تثبيت أركان الدولة وفرض سلطانها على أقاليم مصر والشام والحجاز، وتمكن من تطهير فلسطين وعموم الشام من بقايا الصليبيين وإنهاء إماراتهم، وإعادة رسوم الخلافة العباسية الإسلامية انطلاقاً من القاهرة بعد سقوطها في بغداد على يد المغول.

ورغم كون المماليك من أصول غير عربية إلا أنهم تمكنوا من تعلم العربية وعلومها والتفقه في الدين الإسلامي وقراءة التاريخ والتفنن في العلوم العقلية والتأليف باللغة الأصلية للبلاد التي حكموها. وقد تنافس السلاطين والأمراء المماليك في إنشاء دور العلم ومؤسسات التعليم ونشر الثقافة العربية الإسلامية في مدينة القاهرة ودمشق وبلاد الحرمين.

فما هي أبرز هذه المؤسسات؟ وما هي اختصاصاتها؟ وما هو دورها في الإشعاع الفكري والعلمي في العهد المملوكي؟

وفي هذا المقال واعتماداً على ما توفر لدينا من المصادر المملوكية على وجه التحديد، عملنا على تتبع تاريخ هذه المؤسسات انطلاقاً من المدارس التي ضمت مختلف المقررات الدراسية في العلوم النقلية والعقلية وعلى المذاهب السنية الأربعة، ثم الخوانق والربط التي تم تخصيصها لعلوم الدين التصوف، وانتهاء بالبيمارستانات والتي كانت مكاناً للعلاج وتعليم الطب.

2. المدارس:

كان المصريون في عصر الفاطميين يستخدمون دار العلم والجامع الأزهر كمؤسسات تعليمية، وكانت هذه المؤسسات بمثابة مراكز استخدمها الخلفاء الفواطم لنشر وترسيخ مذهب الشيعة داخل المجتمع المصري، وفي عصر الأيوبيين قام صلاح الدين الأيوبي بإبطال مذهب الشيعة من مصر، وبدأ حرباً فكرية ومذهبية ضدهم بإنشاء مدرستين سنة 566هـ/1170م بجوار جامع عمرو بن العاص، خصّص إحداها وهي المعروفة بالناصرية للفقهاء الشافعية، وخصّص الثانية المعروفة بالقمحية للفقهاء المالكية. (أبوشامة، 1962، ص: 688).

وقد اقتدى صلاح الدين في سياسته في بناء المدارس بالعدل نور الدين محمود زنكي (ابن كثير، 1985م، 12/ 277) الذي أسس ببلاد الشام عدّة مدارس للشافعية والحنفية (الدمشقي، 1990م، ص: 3

جوانب من تاريخ المؤسسات العلمية بمدينة القاهرة في عهد المماليك

وما يليها) ، وكان بدوره قد أخذ هذه التقليد من السلاجقة الذين يعدون أوّل من استعمل المدارس لنصرة المذهب السني و محاربة مذهب الشيعة (ابن كثير، 1985، 13/196-197).

وسار المماليك على نهج الأيوبيين في تدعيم مذهب السنّة، وحركة بناء المدارس خدمة لذلك الغرض، واستقرت المذاهب السنية الأربعة رسمياً عندما قام الظاهر بيبرس البندقداري بتعيين القضاة من المذاهب الأربعة (القلقشندي، 1985، 4/35)، فأتاح هذا القرار نوعاً من المساواة بين هذه المذاهب، وكان ذلك من الدوافع الهامة لبناء المدارس وكذلك الحاجة الماسة إلى تخريج الشيوخ والقضاة والعلماء في المذاهب السنية الأربعة لتدعيم موقف الدولة ضد مذهب الشيعة (عاشور، 1962، ص: 143).

وأقبل سلاطين المماليك والأمراء وأصحاب الأموال على بناء المدارس في القاهرة والمدن المصرية الأخرى، وعبر القلقشندي عن هذه الحركة بقوله: "ابتنوا من المدارس ما ملأ الأخطاط وشحنها" (القلقشندي، 1985، 3/364)، وذكر ابن بطوطة: "وأما المدارس بمصر فلا يحيط بمصرها لكثرتها" (ابن بطوطة، 1996، ص: 56)، وأحصى المقريزي في خططه ستاً وعشرين مدرسة بناها الأيوبيون كانت جلها لا تزال قائمة في عهده (المقريزي، 1987، 2/363)، فضلاً عن التي بنيت في عهد سلاطين المماليك منذ عهد السلطان عز الدين أيبك التركماني (648-654 هـ/1250-1256م) وانتهاءً بالسلطان قانصوه الغوري (906-922 هـ/1501-1516م)، حيث لم يخل عهد سلطان أو أمير من إنشاء مدرسة أو مؤسسة تعليمية واعتبرت المدارس المملوكية من مظاهر السلطة و شعارها. (النشار، 1993، ص: 89).

وكانت هذه المدارس أشبه بالجامعات، وكانت بعضها مخصصة لمذهب فقهي معيّن، بينما كانت الأخرى تشتمل على المذاهب السنية الأربعة، وكانت تدرس بها العلوم الدينية، ثم تطورت وصارت تدرّس العلوم اللسانية والعقلية، وألحقت بكلّ مدرسة خزانة كتب كان المدرسون والطلاب يرجعون إليها للبحث والاستقصاء. (القلقشندي، 1985، 1/467).

وقد اشتهرت الكثير من المدارس في مصر المملوكية، وسنقتصر على ذكر البعض منها مركزين على المدارس التي كانت مخصصة للمذهب المالكي أو التي كان الفقه المالكي مدرجاً في برنامجها الدراسي ومقرراً رفقة المذاهب السنية الأخرى، خاصة وأنّ جل علماء المغرب الإسلامي كانوا على مذهب الإمام مالك، وكانوا في تنقلاتهم إلى المشرق يتجهون إلى هذه المدارس لتولي الوظائف العلمية أو لطلب العلم.

1.2 المدرسة القمحية:

عبد الرحمن بالأعرج

أنشأها السلطان صلاح الدين الأيوبي للفقهاء المالكية بجوار الجامع العتيق بمصر سنة 566 هـ/ 1170م (أبو شامة، 1962، ص: 688)، وأوقف عليها قيسارية الوراقين و أراضي من الفيوم تغل القمح فسميت لذلك القمحية (ابن خلدون، 1981، ص: 1099)، ورتب فيها أربعة مدرّسين عند كلّ مدرّس عدّة طلبة وكانت أجل المدارس المالكية، وكان محصول القمح مصدر تمويلهم الرئيسي (المقريزي، 1987، 364/2)، وكان عبد الرحمن بن خلدون ممّن تولى التدريس بها لما ارتحل إلى مصر (ابن خلدون، 1981، ص: 1099).

1.2 المدرسة العادلية:

أنشأها الملك العادل أبو بكر بن أيوب (ت 615 هـ/ 1218 م) (ابن كثير، 1985، 79/13)، وكانت عامرة وخصّصها للفقهاء المالكية (المقريزي، 1987، 365/2).

3.2 المدرسة الفاضلية:

بنيت سنة 580 هـ بالقاهرة، وأوقفت على الفقهاء الشافعية و المالكية، وكان فيها قاعة للإقراء، و ممّن أقرأ فيها الإمام أبو القاسم بن الشاطبي ناظم الشاطبية (الصفدي، 1911، ص: 228-229). وكانت تضم مكتبة ضخمة في سائر العلوم ذهب كلّها لأنّ الطلبة باعوها في غلاء سنة 694 هـ/ 1298م كما كان ملحقا بها كتاب للأيتام (المقريزي، 1987، 366/2).

4.2 المدرسة الصاحبية:

أنشأها بالقاهرة الصاحب (النويري، 1985، 422/30) صفى الدين عبد الله بن شكر بالقاهرة، وجعلها وقفا على الفقهاء المالكية، ورتب لها درسًا للنحو وجعل لها خزانة كتب، وقد جدّدت سنة 758 هـ/ 1357م أيام الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون، وصارت تقام بها صلاة الجمعة (المقريزي، 1987، 371/2) وكان أبو العباس أحمد بن محمد بن مرزوق يداوم على حضور الدروس الفقهية والمجالس العلمية بهذه المدرسة (فيلاي، 2002، 395/2).

5.2 المدرسة الظاهرية:

بناها بالقاهرة السلطان الظاهر بيبرس البندقداري، بدأ فيها سنة 660 هـ/ 1263م، وكان السلطان قد رتب وقفها قبل بنائها (الدوادر، 2001، ص: 177).

جوانب من تاريخ المؤسسات العلمية بمدينة القاهرة في عهد المماليك

وفي يوم الأحد 15 صفر 662هـ/1263م، اجتمع أهل العلم و حضر القراء، و جلس أهل الدروس كلّ في إيوانه الذي خصصا له و افتتحت المدرسة رسميا من قبل السلطان في يوم مشهود، و أنشد لذلك الشعراء كثيرا من القصائد، من ذلك قول الشاعر أبي الحسن الجزار (ابن تغري بردي، 1972، 345/7):

ألا هكذا بيني المدارس من بني ومن يتغالى في الثواب و في الثنا (الدوادار، 2002، ص: 118)

وكان يدرّس بهذه المدرسة الفقه والحديث والقراءات، وكان بها خزانة كتب شملت مختلف العلوم، وبني بجانبها مكتبا لتعليم الأيتام كتاب الله، وكانت من أجل مدارس القاهرة، لكن تقادم عهدها وساء حالها خلال القرن 9هـ/15م، وكان نظرها بيد الحنفية تارة و بيد الشافعية تارة أخرى (المقريزي، 1972، 544/1).

6.2 المدرسة المنصورية:

أنشأها السلطان المنصور قلاوون الألفي الصالحى بين سنتي 682-684هـ/1283-1285م ضمن مركب معماري كان يضم البيمارستان والقبة إضافة إلى هذه المدرسة (الحداد، 1998، ص: 109-182)، ورتب بها دروسا على المذاهب الأربعة (المقريزي، 1987، 379/2-380)، و عين لكلّ درس مدرسا له كلّ شهر مائتا درهم وثلاثة معيدين لكلّ منهم خمسة و سبعون درهما، وخموسا طالبا لهم كلّ شهر سبعمائة وخمسون درهما (الحداد، 1998، ص: 49)، ونظم بها التدريس بموجب وثيقة وقفية، وكان لكلّ مذهب إيوان خاص به، واختص الرواق الأيمن من إيوان القبلة (الرواق الجنوبي الشرقي) بجلوس الفقهاء المالكية (الحداد، 1998، ص: 50)، وزودها بخزانة للكتب.

7.2 المدرسة الناصرية:

أنشأها السلطان العادل زين الدين كتبغا المنصوري (ابن كثير، 1985، 27/14-28)، وأكملها السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة 703هـ/1303م، وكانت للفقهاء على المذاهب الأربعة، و جعل بها خزانة كتب وأوقف عليها عدّة مواضع بمصر، وكانت من أجل المدارس العامرة بالقاهرة (المقريزي، 1987، 380/2).

8.2 المدرسة المنكوتمية:

بناها الأمير سيف الدين منكوتر الحسامي الذي كان من مماليك المنصور حسام الدين لاجين، وتولى نيابة السلطنة سنة 696هـ/1296م وتوفي سنة 698هـ/1298م، قرّر بها درسا للمالكية وأسند التدريس فيه

عبد الرحمن بالأعرج

للشيخ شمس الدين محمد بن أبي القاسم بن عبد السلام التونسي المالكي، كما جعل بها درسا للحنفية وخزانة كتب، وجعل عليها وقفًا ببلاد الشام (المقريزي، 1987، 387/2).

9.2 المدرسة المسلمية:

أنشأها أحد كبار التجار وهو ناصر الدين محمد بن مسلم البالسي (ت 776هـ / 1375م)، ولم يتمها، فوصى بتكملتها، وأفرد لها مالا وأوقف عليها دورًا وأرضا و اشترط أن يكون فيها مدرّس مالكي ومدرّس شافعي، ومؤدب أطفال (المقريزي، 1987، 401/2).

10.2 المدرسة الجمالية:

أنشأها بالقاهرة الأمير جمال الدين يوسف الإسطدار فيما بين 810-811 هـ / 1407-1408م، وقرّر التدريس فيها للمالكية الشيخ شمس الدين محمد بن البساطي، كما كان بها دروس للحنفية والحنابلة، ودرس للحديث والتفسير، وكان لكلّ مدرّس طائفة من الطلبة، وأجرى لكلّ واحد ثلاثة أرتال من الخبز يوميًا وثلاثون درهما شهريًا، وجعل لكلّ مدرّس 300 درهم شهريًا، ربّ بها إماما وقومة ومؤذنين وفراشين، وأوقف عليها عدّة أوقاف، وكانت بها مكتبة من أشهر المكتبات المدنية في العصر المملوكي. وفي سنة 812هـ / 1409م هدمها الناصر فرج بن برقوق وأقام على أنقاضها مدرسته الناصرية (المقريزي، 1987، 401/2-402).

11.2 المدرسة الظاهرية البرقوقية:

أنشأها السلطان الظاهر برقوق بين عامي 786-788 هـ / 1384-1386م، وكانت فريدة في ضخامتها، وقرّر فيها أربعة من المذاهب، وشيخ تفسير وشيخ إقراء، وشيخ حديث وشيخ ميعاد بعد صلاة الجمعة، وجعل بها خزانة كتب (السخاوي، د.ت، 12/3)، و عين فيها لتدريس المالكية عبد الرحمن بن خلدون (ابن خلدون، 1981، 1107).

12.2 المدرسة الأشرفية برسباي:

أنشأها السلطان برسباي الدقماقي الظاهري سنة 826-829 هـ / 1423-1426م بالقاهرة، وكانت ضمن مركب ضمّ تربة وجامعًا، وكان هذا السلطان محسنًا للطلبة والقراء والفقهاء، واشترط أن من غاب أكثر من مدّة أشهر الحجّ تخرج وظيفته في المدرسة عنه. وزودت هذه المدرسة بخزانة للكتب (السخاوي، د.ت،

جوانب من تاريخ المؤسسات العلمية بمدينة القاهرة في عهد المماليك

9/3)، وعين لتدريس المالكية بها الشيخ عبادة بن علي المالكي (ت 846هـ/1442م) أحد أقطاب المذهب المالكي بالديار المصرية في عصره.

13.2 المدرسة الأشرفية قايتباي:

بناها السلطان الأشرف أبو النصر قايتباي الحمودي، الذي كان كثير الإنشاءات المعمارية، وبني عدة مدارس عبر عدة مدن مصرية، وأوقف عليها خزائن للكتب (ابن العماد، د.ت، 7/8-8).

14.2 المدرسة الغورية:

أنشأها السلطان قانصوه الغوري أواخر عصر المماليك بين عامي 908-922هـ/1501-1516م، وكان بها خزانة كتب ضمت الكثير من المؤلفات و المصاحف (ابن إياس، 1983، 52/4).

3. الخوانق و الربط و الزوايا:

كان انتشار التصوف بمصر في عصر المماليك من المميزات و الظواهر التي اتصفت بها الحياة الدينية، وساعدت عدة ظروف في انتشار هذه الظاهرة واتساع نطاقها، وكان صلاح الدين الأيوبي قد عمل على إدخال نظام الخانقاوات إلى مصر واستغل التصوف في مشروعه للقضاء على المذهب الشيعي، غير أن التصوف ظل هادئا ولم يشهد تياره إلا في عصر المماليك (عثمان، 2000، ص: 163). وأدت أحداث العالم الإسلامي في المشرق والمغرب إلى هجرة كثير من مشايخ الصوفية إلى مصر أين وجدوا مناخا مناسباً خاصة رعاية واهتمام سلاطين المماليك بهم (ابن تغري بردي، 1984، 263/5)، و الاستعداد الذي كان عند أفراد المجتمع المصري لتلقي تعاليم الصوفية وتقبل آرائهم ومذاهبهم المختلفة فاندفع الكثيرون إلى الدخول تحت لواء المشايخ (عاشور، 1985، ص: 162-163).

وكان الصوفية في مصر يتخذون من الخوانق والربط والزوايا مراكز لنشاطهم وتعليم مذهبهم لأتباعهم، والخوانق أو الخانقاوات جمع خانقاه هي لفظ فارسي الأصل معناه بيت الصوفية، وقد أحدثت في العالم الإسلامي خلال القرن 4-5هـ/10-11م (المقريزي، 1987، 414/2).

وكانت الخوانق عبارة عن دور عبادة وعلم، حيث كان يدرس فيها الفقه والحديث والقراءات والتصوف، كما كانت مأوى للوافدين من الغرباء على مصر، ومراكز إشعاع ثقافي بما حوته من مكتبات وكتب في شتى العلوم (رزق، 1997، 21/1-23).

عبد الرحمن بالأعرج

كما كان لها طاقم إداري مكّون من شيخ الخانقاه وإمامها، وناظرها ومدّرّسو المذاهب، والمعيدون وخازن الكتب، وغيرهم من القائمين على خدمة الطلبة والوافدين، وكان لكلّ موظف منهم أجره (المقريزي، 1987، 415/2).

وكانت أول خانقاه أسست بمصر هي خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة، وتعرف أيضا بالصلاحية، أنشأها السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة 569 هـ/1173م، وولى عليها شيخا ووقف عليها بستانا وقيسارية (النويري، 1985، 364/28).

وكانت هذه الخانقاه مخصّصة لدراسة المذهب الشافعي، ومُنّ تولى التدريس بها: تقي الدين بن رزين، وتقي الدين بن دقيق العيد، و برهان الدين الخضر السنجاري، وتقي الدين بن بنت الأعز وبهاء الدين بن تقي الدين السبكي وابن حجر العسقلاني (الالسيوطي، 1978، 261/2-257)، وكان هؤلاء المشايخ من أقطاب العلماء بمصر في عصر سلاطين المماليك، ممّا يدل على أهمية هذه الخانقاه وأنّ إسناده مشيختها وتدرّسها كان لا يصح إلا للمبرزين من العلماء.

وفي عهد المماليك انتشرت الخوانق انتشارًا واسعًا، وذكر المقريزي بالقاهرة وحدها 22 خانقاه، وكان أشهرها:

1.3 الخانقاه البيبرسية:

أنشأها الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير سنة 707-709 هـ/1306-1309م، ووصفها المقريزي بأنها أجل خانقاه بالقاهرة بنيانًا وأوسعها مقدارًا وأتقنها صنعة وبنى بجانبها رباطًا كبيرًا وقبّه لضريحه، وقرّر فيها 400 صوفي، وبالرباط 100 من الجند، ورَتّب بالقبة درسا للحديث النبوي، وكانت لهذه الخانقاه عدّة أوقاف بمصر والشام (المقريزي، 1987، 416/2)، وكان عبد الرحمن بن خلدون ممّن تولى مشيختها (ابن خلدون، 1981، 1138).

2.3 خانقاه سرياقوس:

تقع هذه الخانقاه خارج القاهرة ناحية الشمال، أنشأها السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وجعل فيها مائة خلوة لمائة صوفي، وبنى بجانبها جامعًا، وبنى بها حماما ومطبخا في 723 هـ/1323م، وكُمّلت في 725 هـ/1325م، وافتتحها السلطان مع الأمراء والقضاة ومشايخ الخوانق، وسكن الناس حولها حقّ صارت

جوانب من تاريخ المؤسسات العلمية بمدينة القاهرة في عهد المماليك

بلدة كبيرة (المقريزي، 1987، 420/2)، ولقب شيخ هذه الخانقاه بشيخ الشيوخ (القلقشندي، 1985، 38/4).

4.3 الخانقاه الشيخونية:

أنشأها الأمير الكبير شيخو العمري الناصري سنة 756هـ/1355م (ابن العماد، د.ت، 183/6)، وكان يقام بها درس الحديث والتفسير والقراءات والفقه على المذاهب الأربعة، وكان لكل درس شيخ وطلبة، واشترط عليهم حضور الدرس ووظيفة التصوف (السيوطي، 1978، 145/2).

5.3 الخانقاه الظاهرية:

أنشأها الملك الظاهر برقوق سنة 786-788هـ/1384-1386م، وكان لها عدة أوقاف، وكانت تزخر بالكتب والشيوخ والمدرسين والمعידين والطلاب في فقه المذاهب الأربعة وعلوم التصوف والقراءات والتفسير والحديث (السخاوي، د.ت، 12/3).

6.3 الخانقاه الناصرية فرج:

أنشأها السلطان فرج بن برقوق سنة 801-813هـ/1398-1460م، وكانت أضخم خانقاه بمصر مساحة وأكثرها نفقة، وبنيت على شكل مسجد فسيح الأرجاء لإقامة الصلوات، وكمدرسة للعلوم الشرعية وخانقاه للصوفية وتربة للعائلة البرقوقية وكتاتيب لتعليم الأيتام، وأصبحت نواة مدينة ناشئة (ابن تغري بردي، 1972، 168/12).

7.3 الخانقاه الأشرفية برسباي:

أنشأها السلطان الأشرف برسباي (السخاوي، د.ت، 9/3) بالقرافة الشرقية سنة 835هـ/1431م، وكانت تلي الخانقاه الناصرية فرج من حيث الأهمية، وكانت مزودة بمكتبة زاخرة بالمصنفات الدينية والفقهية واللغوية والتاريخية والمصاحف والربعات الشريفة، وكانت تقام بها دروس الفقه على المذاهب الأربعة (رزق، 1997، 617-603/2).

8.3 الخانقاه الغورية:

أنشأها السلطان قانصوه الغوري أواخر عهد المماليك سنة 909-910هـ/1503-1504م، وكانت بها خزانة كتب ضمت الكثير من المصنفات والمصاحف (رزق، 1997، 744-742/2).

عبد الرحمن بالأعرج

أما الرّبط فهي جمع رباط، وهو دار كان يسكنها أهل طريق الله، وهو بيت الصوفية أيضاً، وهو من المراقبة أي لزوم الثغر (المقريزي، 1987، 427/2).

وكانت الرّبط منتشرة على ثغور الدّول الإسلاميّة خاصة في بلاد الشام والمناطق التي كانت في جهاد مستمر ضدّ الصليبيين، كانت تجمع بين حياة الحرب والحياة الروحيّة، لكن وبعد أن ضعف الخطر الصليبي بالشرق أخذ الرباط يفقد طابعه الجهادي وتغلبت عليه الصفة الدنيويّة، وساعد انتشار التصوف في عصر المماليك على إيجاد المبرّرات لبقاء الرّبط وتحويلها إلى دور الصوفية (رزق، 1997، 100/1).

وقد اهتم سلاطين المماليك بإنشاء الرّبط، وتبعهم في ذلك الأمراء وحتى بعض السيدات الصّالحات، ووجدت أُرطة للرجال وأخرى للنساء، وأحصى المقريزي بالقاهرة 12 رباطاً منها:

9.3 رباط البغدادية:

بالقرب من خانقاه سرياقوس، بنته السّت الجليلة تذكّار باي خاتون ابنة الملك الظاهر بيبرس سنة 684هـ/ 1285م للشيخة الصالحة زينب بنت أبي البركات المعروفة ببنت البغدادية، فأُنزلت بها ومعها النساء الخيرات، وكان به شيخة تعظ النساء وتذكّرن وتفقّهن (المقريزي، 1987، 428/2).

10.3 رباط ابن سليمان:

خارج باب زويلة بالقاهرة، عرف باسم أحمد بن سليمان بن أحمد بن إبراهيم بن أبي المعالي بن العباس الرحي البطائحي الرفاعي شيخ الفقراء الأحمديّة الرفاعيّة بديار مصر (ت 691هـ/ 1292م) (ابن الملّقن، 1973، ص: 417).

11.3 رباط ابن أبي منصور:

نسبة إلى الشيخ صفّي الدين الحسين بن علي بن أبي منصور الصوفي المالكي (ت 682هـ/ 1283م)، سلك طريق الصوفية على يد الشيخ أبي العباس أحمد بن أبي بكر الجزار التجيبي المغربي، وكان رباطه بقرافة مصر (المقريزي، 1987، 428/2).

12.3 رباط الآثار:

خارج مصر، كان مطلاً على نهر النيل، قرّر فيه الملك الأشرف شعبان بن حيي بن محمد بن قلاوون مدرسا للفقهاء الشافعية وجعل له مدرّس وعنده عدّة طلبة وكان لهم نفقة ووقف وكان به خزانة كتب (المقريزي، 1987، 429/2).

جوانب من تاريخ المؤسسات العلمية بمدينة القاهرة في عهد المماليك

أمّا الزوايا فهي الركن من البيت أو المسجد، وكان أصلها مسجداً صغيراً للصلوات وهي على العموم دار الصوفية، كما تداخلت تعاريف كلٍّ من الخانقاه والرباط والزاوية لاسيما بعد ما أصبحت وظائفها في مصر المملوكية متشابهة، ولم تعد التفرقة واضحة بين هذه المصطلحات (رزق، 1997، 102/1-103).

وقد انتشرت الزوايا في العصر المملوكي كنوع من منشآت التصوف، وكانت الزاوية تنشئ في الغالب برسم شخص معين لينقطع فيها للعبادة، مثال ذلك زاوية الشيخ خضر التي أنشأها الظاهر بيبرس البندقداري خارج القاهرة وأنزل بها الشيخ خضر بن أبي موسى المهراني العدوي، الذي توفي سنة 676هـ/1277م، وكان للظاهر بيبرس اعتقاد كبير فيه (ابن الملقن، 1973، 431)، وزاوية الركاكي خارج القاهرة، وهي منسوبة للشيخ أبي عبد الله محمد الركاكي المغربي المالكي (ت794 هـ / 1393م) (ابن تغري بردي، 1972، 134/12)، لإقامته بها وكان فقيها مالكيًا متصدياً لأشغال المغاربة، وزاوية الجعبري نسبة إلى الشيخ برهان الدين إبراهيم بن معضاد بن شداد بن ماجد الجعبري المعتقد الواعظ (ت687هـ / 1288م) وكان يجلس فيها للوعظ ورواية الحديث ويشارك في الطب، كما كان ينظم الشعر (ابن تغري بردي، 1972، 374-376).

4. البيمارستانات:

البيمارستانات جمع بيمارستان وهي كلمة فارسية معربة تعني دار المرضى، واختصرت فصارت مارستان (عيسى، 1984، ص: 4)، وكانت بمثابة كليات الطب الحديثة، ولم تكن هذه المؤسسات خاصة بعلاج المرضى فقط، بل كانت تدرس الطب على أيدي أساتذة متخصصين، فكانت في الوقت ذاته مكاناً للدراسة النظرية والتطبيقية (عاشور، 1985، ص: 92-93).

وقد حرص سلاطين المماليك على إنشاء البيمارستانات وتزويدها بطاقم طبي وبالأدوية والكتب اللازمة، في إطار اهتمامهم برعاية الصحة العامة للمجتمع المصري (عاشور، 1985، 93).

ومن أشهر البيمارستانات بمصر:

1.4 البيمارستان الطولوني :

هو أول بيمارستان أنشئ في مصر، أنشأه أحمد بن طولون عام 259هـ/871م (ابن تغري بردي، 1972، 101/4)، وأوقف عليه عدّة أوقاف وزوده بخزانة كتب لإقامة دروس الطب واستمر في وظيفة حتى عصر المماليك الجراكسة (المقريزي، 1987، 405/2).

2.4 البيمارستان المنصوري:

عبد الرحمن بالأعرج

أنشأه السلطان المنصور قلاوون الألفي الصالحى، بدأ فيه سنة 683هـ/1284م، وأوقف عليه أوقاف كثيرة، وجعل به خزانة كتب ومكاناً يجلس فيه رئيس الأطباء لإلقاء درس الطب (ابن تغري بردي، 1972، 326/7-327). وكان له طاقم إداري يضبط مصاريفه وما يحتاجه من الأدوية، و موظفين يقومون بصيانتها فضلاً عن الأطباء المعالجين، و كان به قاعات حسب الأمراض، و قاعة خاصة بالنساء، وألحق به مطبخاً وصيدلية لصناعة الأدوية والأشربة (المقرئى، 1987، 406/2-407).

واشترط السلطان المنصور عند بنائه الانشغال فيه بعلم الطب، وتعيين شيخ مدرّس من الحكماء الأطباء يكون عالماً بالطب (الحداد، 1998، ص: 139-121-56).

وقد وصف الكثير من المؤرخين والجغرافيين هذا المارستان وأشادوا به، وقال عنه الكتي: " المارستان العظيم الذي لم يكن مثله" (الكتي، 1988، 270/2)، ووصفه الحسن الوزان بقوله: " وفي القاهرة بيمارستان كبير... وهو مفتوح للجميع يجد فيه المريض كلّ التسهيلات والعلاجات الطبية وجميع ما يحتاج إليه" (الوزان، 1983، 206/2-207). ووصفه ابن بطوطة بقوله: " وأما المارستان ... فيعجز الواصف عن محاسنه وقد أعدّ فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر، يذكر أنّ مجباه ألف دينار كلّ يوم" (ابن بطوطة، 1996، 56/1).

3.4 البيمارستان المؤيدي:

أنشأه السلطان المؤيد شيخ سنة 821-823 هـ/ 1418-1420م، وجعل له أوقافاً، و لما مات المؤيد سنة 824 هـ/ 1421م تعطل ثمّ سكنه طائفة من العجم ثمّ تحول إلى مسجد جامع (المقرئى، 408/2).

5. خاتمة:

إن المستعرض للتاريخ الثقافي والعمراني لدولة المماليك يجد بأن هذا العنصر الذي وفد من بلدان غير عربية وحكم في مصر والشام والحجاز وامتد سلطانهم إلى كل الحوض الشرقي والغربي للبحر المتوسط، قد بذلوا جهوداً لا يستهان بها في خدمة العلم والثقافة العربية والإسلامية، خاصة في مدينة القاهرة، والتي كانت عاصمة للعالم الإسلامي، لكونها مقراً للخلافة العباسية بعد سقوط بغداد على يد المغول.

ويلاحظ كيف تمكن المماليك من جعل عاصمتهم بحق مركز إشعاع ثقافي وعالمي يقصده المغاربة والمشاركة والأفارقة على حد سواء، حيث تنوعت مراكز العلم بها، فبنيت المدارس والخوانق والزوايا والربط والبيمارستانات التي كانت تؤدي الدور الديني والتربوي التعليمي والعسكري.

جوانب من تاريخ المؤسسات العلمية بمدينة القاهرة في عهد المماليك

وكانت هذه المؤسسات مفتوحة لجميع طلاب العلم والشيخ الذين يريدون مواصلة الدروس بها، واحتوت على المكتبات الملحقة، وكان يديرها المدرسون، وكان تمويلها عن طريق الأوقاف. فكانت المدارس المتخصصة في إحدى المذاهب السنية الأربعة المعتمدة لدى الدولة وهي المذهب الشافعي والمذهب المالكي والمذهب الحنفي والمذهب الحنبلي، وكان بعضها يشتمل على كل المذاهب. وكانت المدارس تنسب لمؤسسيها في الغالب من سلاطين أو أمراء المماليك الذين تنافسوا في تخليد ذكراهم بترك هذه المؤسسات التي تحمل أسماءهم. والأمر نفسه ينطبق على الخوانق والزوايا والربط التي كانت تحمل صبغة الصوفية والفقراء، لكنها كانت دور علم وتربية سلوكية حاضرة بقوة.

أما البيمارستانات أو المستشفيات فقد أسست لأغراض حفظ الصحة العامة للبلاد وتكوين الأطباء.

6. قائمة المراجع:

- 2- ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي ت 930هـ/1524م. (1983). بدائع الزهور في وقائع الدهور، (5 أجزاء)، تحقيق: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- 3- ابن تغري بردي. جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي ت 774هـ/1470م. (1972). النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة، (16 جزءاً)، تحقيق: إبراهيم علي طرخان، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة.
- 4- (—). (1984-1990). المنهل الصافي و المستوفى بعد الوافي، (7 أجزاء)، تحقيق: محمد أمين، نبيل محمد عبد العزيز، دار الكتب، القاهرة.
- 5- ابن كثير الدمشقي، أبو الفداء إسماعيل بن عمر ت 774هـ/1373م. (1985). البداية والنهاية، الطبعة السادسة، (14 جزءاً)، مكتبة المعارف، بيروت.
- 6- ابن شاعر الكتي، محمد بن شاعر بن أحمد ت 764هـ/1363م. (1951). فوات الوفيات والذيل عليها، الجزء الأول والثاني، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
- 7- ابن العماد الحنبلي (عبد الحي بن أحمد بن محمد ت 1089هـ/1678م)، (دون تاريخ طبع)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، (8 أجزاء)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

عبد الرحمن بالأعرج

- 8- أبو شامة، شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي ت 665 هـ/1267م. (1962). كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، الجزء الأول، تحقيق: محمد حلمي، محمد أحمد، مراجعة: محمد مصطفى زيادة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة.
- 9- ابن الملقن، سراج الدين أبي حفص عمر بن علي بن أحمد المصري ت 804 هـ/1401. (1973). طبقات الأولياء، تحقيق: نور الدين شريعة، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- 10- بيبس الدوادر، الأمير ركن الدين بن عبد الله المنصوري ت 725 هـ/1324م. (2001). زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق: زبيدة محمد عطا، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة.
- 11- الحداد، محمد إسماعيل. (1998). السلطان المنصور قلاوون، الطبعة الثانية، مكتبة مدبولي، القاهرة.
- 12- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد ت 821 هـ/1418م. (1985). صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، (14 جزءاً)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.
- 13- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت 902 هـ/1497م. (دون تاريخ طبع). الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، (12 جزءاً)، دار مكتبة الحياة، بيروت.
- 14- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت 911 هـ/1505م. (1978). حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، (جزآن)، دار التراث، بيروت.
- 15- السيد الشّار، السيد. (1993). تاريخ المكتبات بمصر العصر المملوكي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة.
- 16- عاشور، سعيد عبد الفتاح. (1962). المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة.
- 17- النعمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي ت 927 هـ/1521م. (1990). الدّارس في تاريخ المدارس، (جزآن)، دار الكتب العلمية، بيروت.
- 18- المقرئ، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي ت 845 هـ/1442م. (1987). كتاب المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرئية، الطبعة الثانية، (جزآن)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

جوانب من تاريخ المؤسسات العلمية بمدينة القاهرة في عهد المماليك

19- محمد رزق، عاصم. (1997). خانقاوات الصوفية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، (جزآن)،

مكتبة مدبولي، القاهرة.

20- <https://www.emaratalyoum.com/ramadan/ramadan-and-people/2021-04-17-1.1479206> (17/06/2021)

21- <https://www.elbalad.news/3716389> (17/06/2021)

7. الملاحق: نماذج عن العمارة العلمية والثقافية المملوكية



مسجد ومدرسة السلطان الناصر حسن

<https://www.emaratalyoum.com/ramadan/ramadan-and-people/2021-04-17-1.1479206> (17/06/2021)



البیمارستان المنصوري: <https://www.elbalad.news/3716389> (17/06/2021)